

حوار حول
الطهارة

شخصيات المحاوره

صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي، سيدة ثرية جميلة مثقفة.

سليمان: مثقف يحمل لواء العقل وسيادة قوانينه.

حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.

جاكو: ممثلة.

سلوى: مديرة ثانوية خاصة.

جاكوب: رجل وكالات استيراد وتصدير.

صونيا: أهلاً بكم في هذا المنتدى المتواضع الذي نذر نفسه للتفتيش عن الحقيقة لنحقق بها إنسانيتنا، ونكون جديرين أن نكون أبناء أبنينا الذي في السموات، والذي امتلأ به كل الوجود، والذي خصّ كل واحد منا بطريق نصل بها إليه، أهلاً بكم تعبرون عن آرائكم بصدق وجرأة قد نصيب وقد نخطئ وقد تنتظم أفكارنا وقد تجمح وتشرذم في كل اتجاه، ولكنها في كل الحالات تبقى صادقة ونظيفة لا يتناقض ظاهرها مع باطنها ولا إيقاعها مع معانيها.

حسام: سيدتي من ألق عينيك استنرنا فغدونا مستنيرين، وغدا لنا نورٌ يضيء ما بين أضلعنا ونورٌ نمشي به بين الناس، سيدتي من شجرة عقلك قطفنا أشهى ثمرات المعرفة، أكلنا ولمّا نشبع، وشربنا ولمّا نرتوي، إنه جوع الصحاري الى ماء السماء، جوع الورد الى ندى الربيع، جوع المعاني الى جسد الحروف.

سليمان: على مائدة الصداقة المستديرة نجتمع، وتحت مظلة البحث عن الحقيقة نتحاور يحدونا الشوق الى المعرفة التي تُطلب لذاتها ولا تُطلب لغيرها، المعرفة التي بها يتأله الانسان ويتأنس الإله معرفة البديهيات المنطقية والفضائل البرهانية، إنها لذة اللذات وسعادة السعادات، وما عداها كثافة مركبات وشؤوناً عرضية تدور كيفما يدور بها الزمان.

جاكو: أكثر أهالي الشرق يحصرون المعرفة بالطب والهندسة والمحاماة، وما عدا ذلك باطل الأباطيل، تقول أمام جمع من الأقارب أنا أخصص في علم الموسيقى فترى أكثرهم يتأفف أو يشيح بوجهه كي لا يضطر الى إعطاء جواب سلبي، تقول أمام الأصدقاء أريد أن أدرس فنّ رقص التانغو فيبتسم وكأنّ الرقص في عقله مرادفٌ للانحلال والخلاعة.

سلوى: في عهد النهضة في أوروبا أول ما كانت تتعلمه الفتيات الأرستقراطيات هو آداب السلوك الاجتماعي وأخصه العزف على البيانو ورياضة الجمباز، وكانوا يربطون ذلك بتعاليم أفلاطون أنّ الموسيقى تهذب الطبائع العدوانية والجامحة، وتزرع في النفس بذور الاعتدال والتوازن، أما الجمباز فيجعل الجسد أكثر طواعية واستعداداً للانجذاب الى الأعلى كالسهم المنطلق. وهذا بدوره يشجع الأخلاق أن تسمو وتترفع عن صغائر الأمور.

جاكوب: كل سلوك لا يعطي فائدة عملانية هو لهوٌ وعبثٌ، فبرأيي الذي اعتبره صحيحاً لا معرفة من أجل المعرفة، لا معرفة تطلب لذاتها ولا تطلب لغيرها، المعرفة تطلب من أجل الفائدة في تطوير الانتاج وزيادة رأس المال والحصول على مزيد من الرفاهية، لقد تجاوزنا زمن الفلسفة والمتفلسفين، نحن اليوم نقيس أحقية الشيء بمدى منفعته.

صونيا: أنتم مدعوون اليوم للتجاوز في موضوع الطهارة، وكما تعلمون بداية الطهارة النظافة، وهنا لا بدّ من المطابقة بين نظافة الظاهر ونظافة الباطن، فمن اتسخ بجسده من الصعب أن يكون نظيفاً بروحه، أو بعبارة أدقّ لا يستطيع عابداً أو ناسكاً أو من يعيش في محبس أو من يستتر بحجاب " على أساس أنّ الجسد عورة" لا يستطيع أولئك الناس أن يهملوا نظافة أجسادهم بحجة الاشتغال الدؤوب على طهارة بواطنهم من الشهوات والرغبات والأمانى والأحلام والخبائث التي تتناسل جميعها كما تتناسل الفئران.

حسام: التزين والتطيب شيء والنظافة شيء آخر، التزين ينعش حاسة النظر فقط، أما النظافة فتتعش كل الحواس مجتمعة، تراقص امرأةً نظيفة فتشم في عنقها رائحة الربيع، تتخيل نفسك أدونيس وتتخيل صديقتك عشروت، تشعر بأن أقدامك ترتفع عن الأرض، بأنك تطير في فضاء أنوثية ملونة بألوان قوس قزح، يقترب رأسك أكثر باتجاه ترائب الصدر فتشعر أنك تنتزه في بستان ياسمين، وهنا تختلط الحواس وتتشابك فأنتك تسمع بعينيك وترى بأذنيك، وتنطق بأصابع يديك، سعادة لا يعرفها إلا شاعرٌ داعب خواصر الكلمات ونهل من أنداء العبارات لبين الوعي والحرية، صدقوني أيها الأصدقاء لا شيء يطهر روح الرجل من خبائثها إلا رائحة جسد امرأة تشفف صلصالها حتى غدا لحناً موسيقياً تصدح به شفاه النشوة فيرقص الريح وتتمايل أعطاف الشجر.

سليمان: أن يكون الشيء نظيفاً يعني أن نظهره مما علق به من فضلات علاقتها بذاته علاقة عرضية وليست علاقة جوهرية، وهنا لا بدّ من التمييز ما بين الجوهر والعرض، فهل أنت يا شاعرنا الكبير في تشبيبك بالمرأة تميز بين جوهر أنوثتها وأعراضها؟

سلوى: حسام من الشعراء الغاوين الذين في كل وادٍ يهيمون، والذين يقولون ما لا يفعلون، لقد أتحنفا بتمييز رائع بين التزين والنظافة، ولكني أراه على أرض الواقع لا يجذب إلا الى ذوات الشفاه المنتفخة والأنداء التي أشبعت بالسيليكون فنهدت واستدارت وفاضت في كل الاتجاهات، إنه يندلق على شرفات الأفخاذ العارية التي تلمع بالدهونات، ثم يتكلم متفاصحاً عن النظافة، نظف خيالك يا صديقنا من رسوبات عهود الكبت وعصور الحرمان، نظفه من التشدد بأريحيات الحب وأنت لا تبغي إلا لهاث الجسد المعروق برطوبته وعفونته وحرارته.

جاكو: سمعت مرةً أحد الوعّاظ الدينيين يقول إنّ النظافة هي لظاهر الجسد والطهارة هي لباطن الروح، ثم استطرد فقال أنّ النظافة هي أن ننظف الجسد مما علق به من أوساخ وأدران وشعر وإفرازات، وهنا علق هذا الواعظ في جدلٍ حاد مع شابٍ من المستمعين، قال له وهل شعر اللحية والشوارب أدران علقت بالجسد أم هي علامة رجولة وفحولة وتقوى عند البعض؟

وهنا إرتبك الواعظ وأخذ يتلجلج في الكلام فدخل شابٌ آخر على خط الجدال وقال: لماذا شعر العانة والإبطين يعتبر زوائد وأدران من شروط النظافة إزالتها، وشعر اللحية والشوارب يعتبر علامات رجولة وتقوى؟ وما الفرق بين الإثنين طالما أنها كلها وجدت طبيعياً مع الجسد؟

جاكوب: الشعر أينما وجد ليس زوائد عالقة بالجسد بل هو ركنٌ أساسيٌّ من أركان الجسد، ومصدرٌ جماليٌّ له، شرط ألا نسمح للأوساخ أن تعلق بذلك الشعر أينما وجد، وهذا ما لا يفعله الانسان لأنه مطبوع على القذارة.

صونيا: أكثر الناس يستلذون أن يقولوا نحن من التراب والى التراب نعود، إنهم يكرهون أن يكونوا أبناء نور الطهارة ونار الإبداع، كل الناس صفقوا لفرويد الذي مرَّغ بالصيد طهارة الأبوة والأمومة، وداس على الحبّ والصدقة بكعب حدائه، مرجعاً كل اندفاعات الانسان لأسباب شبق جنسي مستحکم في طبيعته.

سليمان: يكفي أن نقارن بين أماكن اللهو عند الأقدمين من يونان ورومان، وأماكن اللهو في العصر الحديث، تلك كانت ملاعب مكشوفة يتعرض فيها الجسد البشري للريح والشمس، وهذه سرايب تحت الأرض لا يدخلها ضوءٌ ولا هواء وتفوح منها رائحة عفن دخان السجائر وعرق الأجساد المحمومة، هذا العصر بامتياز هو عصر القذارة، أكثر سكان الأرض تجمعوا في المدن وهجروا الأرياف، تركوا الغابات والمراعي والحقول وضفاف الأنهار وتكدسوا في المدن التي وفرت المرافق الصحية لجزءٍ منهم وتركت الأجزاء الأخرى لبيوت الصفيح حيث المجارير المكشوفة وجيوش الذباب والبعوض والجرذان.

سلوى: نسيتم تحطيم قدسية الأسرة على يد فرويد وأتباعه ورجال الصناعة وأصحاب الشركات العملاقة حيث كُرس الإباحية مظهراً من مظاهر المدنية الحديثة، وهناك الممارسات الجنسية الغوغائية التي لا يسبقها ولا يعقبها نظافة والتي تسبب أنواعاً من التلوث تشيب له الرؤوس، وتنتج أجيالاً جديدة ملوثة منذ ساعة ولادتها، ثم تتحدثون عن النظافة والطهارة.

جاكو: كان بعض الرجال المستكبرين يعيرون المرأة بأنها مكب قذارات، فالرجل لا عمل له إلا أن يفرغ في أحشائها فضلات دمه المتعفن، واليوم كثيرٌ من الرجال حولوا مؤخراتهم الى مكبات قذارة يفرغ فيها الفحول الشاذين قذاراتهم.

صونيا: يخطيء من يتصور الانسان مركباً من عنصرين هما الجسد والروح، فالانسان وحدةٌ غير قابلةٍ للإفصام، وهذا التصور الخاطيء جعل الكثير من الناس يبالغون في نظافة أجسادهم ويهملون بالكافية نظافة نفوسهم، إنهم يستحمون عدة مرات في اليوم الواحد ويتطيبون ويأكلون

المأكولات الطبيعية الصحية ويشربون الماء المقطر والمعدني، ويلبسون الثياب المعقمة، ويمارسون الجنس بعيداً عن مطبات التلوث، ولكن نفوسهم في المقابل قد امتلأت حسداً وحقداً وفاضت كراهية وبغضاً، واستحدثت أبرع أساليب استغلال الآخرين وابتزازهم.

سليمان: لا يوجد قذارة تعادل قذارة التمييز العنصري أو الديني، فإن تعتبر طبقة من الناس نفسها طبقة أسياد وتعتبر بقية الناس عبيداً لم يخلقوا إلا لخدمتهم، هذا لعمرى قمة التلوث والتعفن النفسي، أو أن يجيز بعض المتدينين لأنفسهم التفكير بأنهم وحدهم أبناء الله وبقية الناس أبناء الخطيئة وأبناء الشيطان، وبالتالي هم لا يستحقون شفقة أو رحمة أو معونة إذا كانوا ضعفاء، ولا يستحقون سعادة إذا كانوا أشقياء، بل يجب ألا تمتد يد العناية إليهم لانتشالهم من بؤسهم وفقرهم وجهلهم، هذا لعمرى أيضاً أقصى درجات الإهتراء.

سلوى: كيف يجيز إنسان لنفسه أن يفكر أنه وحده الذي يحق له التوبة إذا أخطأ، والشفاعة إذا شطن، والرحمة إذا ضعف، بينما الأبواب مقفلة في وجه غيره، لأن غيره من أساس تكوينه لا يوجد في جبلته خميرة إلهية، فغيره من الناس الذين هم أشباح بلا أرواح.

جاكوب: أخرجوا من هذه الترهات الرومانسية، فكما يوجد في الطبيعة صقورٌ وحمائم، ومن حقّ الصقور الطبيعي أن تتغذى بلحم ودم الحمائم، كذلك يوجد في المجتمعات البشرية صقورٌ وحمائم، وما ترونه أنتم استغلالاً وابتزازاً ليس إلا قانوناً من قوانين الطبيعة، هل تريدون أن تساووا بين أناسٍ عقلاء مبدعين نذروا حياتهم للتطور والارتقاء في ترويض الطبيعة وامتطاء صهوتها وتسخيرها لرفاهية الإنسان، بأناسٍ لا زالوا يعبدون الفئران ويغتسلون ببول البقر للتطهر من الخطايا ويسافرون آلاف الأميال للثم قبر أو تقبيل حجر، أو التفتيش عن كأس ضائع أو الاستحمام في ماء نهر ملوث، أو بأناسٍ يحبسون نساءهم في ظلام بيوتهم على أساس أنهم عورات، هل تريدون أن تساووا مغامرٍ اقتحموا المجهول ورؤوا البحر والجو واكتشفوا القارات واستخرجوا خيرات باطن الأرض بأناسٍ خانعين خائفين يعبدون الأشخاص والشعارات والنصوص الخرافية ويسمونها نصوصاً مقدسة هبطت من سماء الطهارة إلى أرض النجاسة، أتساوون بين من يسبر أغوار الفضاء ويغوص إلى أعماق الأرض ويتسلق أعالي الجبال ويفجر ثورةً في عالم المعلومات والاتصالات، بأناسٍ لا زالوا يؤمنون بالجنّ والعفاريت والتبصير والتنجيم ويربطون مصيرهم بالنجوم والأفلاك والخطوط السوداء؟

حسام: تمرّ بجانب صبية حسنة فيجئك منها نسيمٌ يفوح برائحة الياسمين، تصافحها فتنتزع راحتك بشذا الكاردينيا، تضمها فيسيل من العنق جدول مسكٍ وعنبر، تنظر في عينيها فتري

بحر السعادة في مدّه وجزره، يميل بك النظر الى ترائب الصدر فترى صورتك في مرايا الكريستال البوهيمي وترى تلالاً من المرمر المقرب بالياقوت تدفعك للنظر دائماً الى الأعلى، تسمو بك لتسمو بها، ترفعك الى عليائها لترفعها الى رتبة القداسة، تقرئها السلام فيسيل الكلام من شفيتها شدو حساسين هائمة، ألحان فرح متناغمة أفق ابتسامات، هذه هي النظافة شعورك بأن كيانك مزيجٌ من نار ونور وأنغام وألحان، لا مزيج حرارة ورطوبة وبرودة ويبوسة، شعورك أنك أقرب الى السماء منك الى الأرض، أقرب الى الوعي منك الى الجهل، كحبة جوهر ما إن تمسها حتى تكاد تضيء.

صونيا: نظافة الاجساد ونظافة المدن والغابات والأنهر والبحار، تحتاج الى رؤية إنسانية شمولية لا وجود لها في الوقت الحاضر، الدول تتنافس على الانتاج والتصدير والاستهلاك وتضرب بعرض الحائط بنظافة البيئة، فأكثر الأنهر ملوثة انعدمت فيها الحياة، وأكثر البحار غدت ملوثة من النفايات النووية والفضلات البترولية والكيميائية، وحتى مطر السماء لوثته الحوامض فهو يتساقط سموماً لا غيثاً يرتجى، نحن بحاجة الى دول تتحالف على قهر العدو المشترك التلوث وليس الى دول تتسابق على انتاج سلع أكثرها يضر ولا ينفع، نحن بحاجة الى دول تتعاون على وضع مخططات شمولية تحافظ على الغابات والأنهر والشيطان وترعاها لمصلحة الجنس البشري أينما وجد. في الوقت الذي تدعو الحاجة الى تعاون الدول وتنسيق الجهود واستنهاض الهمم لا نرى إلا شعوباً تتقاتل على الجنة من يدخلها قبل الآخر، وعلى صنع أسلحة الدمار الشامل ومن يرعب الآخرين قبل الآخر، وعلى احتكار الثروات ومن يجوع من ومن يستذل من.

لقد تعمدت برحلاتي السياحية أن أزور أحياء المدن الشعبية، نصف سكان القاهرة يعيشون في أحياء لم يصل اليها الصرف الصحي، بل بعضهم يعيشون بين القبور، نصف سكان بومباي يعيشون في بيوت صفيح وزقازيق معتمة، والبعض على الأرصفة يغتسلون بماء الترعة التي يشربون منها ويرمون بها نفاياتهم، حتى المدن التي تعتبر نفسها رمزاً للحضارة كباريس ونيويورك هل زرتهم ضواحيها وأحياءها الخلفية؟

أنا لا أدري ما هي الحكمة في ترك السهول الشاسعة حيث الشمس والهواء والغابات والجدال والتكديس في المدن حيث العفونة والرطوبة وكل أنواع الوسخ الظاهري والباطني، هل هي القصة فقط توفير أياد عاملة رخيصة لأصحاب المصانع العملاقة والشركات المتعددة الجنسيات؟ هل هو الهرب من حياة الريف المنتظمة الهادئة في كنف الأسرة للعيش كأفراد بعالم الضجيج والانفلات خارج أي رباط أو تنظيم في كنف المدينة؟

جاكوب: الانتقال من الاقتصاد الرعوي الزراعي الى الاقتصاد الصناعي الخدماتي فرض قوانينه ومعطياته في تجمّع الناس في المدن حيث الجامعات والمدارس والمشافي والمصانع والشركات العملاقة وجميع وسائل اللهو والترفيه، حتى الزراعة أصبحت مهنة الشركات المختصة العملاقة التي تمتلك مزارع بمساحة دول صغيرة وبأقل عدد من العمال، بتطور التكنولوجيا لم يعد هناك في الانتاج مكاناً للمزارع الصغير والراعي وكلبه وشبابته وقطيع أغنامه، تطور نمط الانتاج هو الذي فرض الوقائع الجديدة، فلا شيء وليد الصدفة، القصة هي متطلبات سوق العمل من اختصاصات معقدة ومهارات دقيقة لا تستطيع إلا المدن أن تقدمها، من أهم مشكلات دول العالم الثالث اليوم هي عدم قدرتها على تزويد سوق العمل بعمال مهرة متخصصين، ولذلك هي لا تفرز إلا أميين مشردين في الشوارع من جهة أو إختصاصات أدبية لا مكان لها في سوق العمل من جهة أخرى. وأنتم هنا أراكم كشعراء الرعاة تتغنون بجمال الطبيعة في الأرياف وبخزير المياه في السواقي ونباح الكلاب وراء قطعان الأغنام، كل هذا شيء جميل نستطيع أن نتذوقه في رحلة كل سنة الى الريف ولكن أين فرص العمل والانتاج التي يؤمنها الريف لكي يستقر أبناؤه فيه؟ ثم هناك شيء آخر ألا تلحظون أنّ المدن هذه الأيام أصبحت مساحاتها تعادل دولاً، فهذه مدينة خط المترو فيها يتجاوز المئة ميل، وتلك مدينة في قلبها من الحدائق العامة والأشجار ما يجعلك تتمتع بكل خصائص الريف، ثم طبيعة المرأة ألم تلحظوا أنّ الاقتصاد الرعوي الزراعي لم يقدم للمرأة إلا الإنزواء في البيت من جهة وحياة خشنة تمضي في حلب الأبقار والاحترق بأشعة الشمس في الحقول من جهة ثانية، إقتصاد الخدمات أعطى المرأة قدرة على المشاركة في الانتاج والمنافسة دون التضحية بنعومة أصابعها وتألّق وجهها ودلال أنوثتها.

سلوى: ولكن إقتصاد الخدمات أفقد الرجال الكثير من خصائص الرجولة، وهو يساهم كما نلحظ هذه الأيام بولادة جنس ثالث وسط بين الرجال والنساء، وإقتصاد الخدمات أبعد الناس عن الملذات الكلاسيكية كأعياد الأرض في مواسم الحصاد وعصر العنب وتمجيد الربيع والرياضة في الملاعب المكشوفة والغناء في الحقول والرقص على ضفاف الجداول والصيد في الغابات والفروسية في امتطاء الخيول، كل ذلك ولّى واستبدل بعصر "البوب والنايت كلوب" وشرب البيرة حتى اندلاق البطون، وممارسة الجنس في حفلات جماعية بآلية خالية من أي أحاسيس إنسانية، والرقص المجنون على أنغام الموسيقى الشيطانية وأخيراً ممارسة المخدرات، هل ترى الآن عشاق هائمون يكتبون القصائد ويرندحون المقاطع الشعرية كما في الأمس؟ حتى اللغة تغيرت وأساليب الكتابة تغيرت فنحن بين نقيضين، إما الخيال الجامح والذي يسمونه الخيال العلمي وهو الانتقال من أساطير وخرافات الجنّ والعفاريت الى أساطير

وخرافات غزو الفضاء واستعمار الكواكب والسوبرمان، وإما العبث والفراغ النفسي والعقلي مع المخدرات والجنس الجماعي والشذوذ.

سليمان: لم أرَ في حياتي نجاسة تعادل نجاسة الظلم والاستبداد، ما أهون تلوث الأنهار والبحار والعيش في بيوت الصفيح مقارنة بتلوث النفوس بالكذب والنفاق والتزلف والمذلة التي يسببها حاكم مستبد يسوق الناس بعصا الخوف فيجبرهم على الكذب والنفاق والتزلف والإستزلام والتبعية، حتى صارت هذه التصرفات عادات راسخة في نفوسهم، بل أصبحت وكأنها طبائع متأصلة ولدت معهم، وسخ الكذب لا يعادله وسخ، يقول الانسان شيء ويفكر بشيء آخر، يلبس قناعاً من الرجولة والشهامة والكرم وهو مجرد غلام مخصي بخيل حقود حسود جبان، يتظاهر بالسيادة والعزة وهو عبدٌ لمن هو فوقه ويحاول أن يستبد بمن هو تحته، دائماً مملوء بالشك والارتياب فهو لا يثق بأحد حتى بأهل بيته بل يتماهى مع الشك حتى يشك بنفسه، فهو إن رأى شيئاً من جسد ابنته مثلاً أو أخته إنتفض غاضباً وأشبع الاثنتين تأنيباً وضرباً، فظاهره يكون غيراً على الشرف والكرامة والتقاليد وأعراف الدين وباطنه هو أنه لا يثق بنفسه أنه لا يشتهي جسد ابنته أو أخته، لا يثق بأبوته ولا بإنسانيته فبايسم الغيرة على الشرف يخنق آخر نفس شريف في صدره ويغدو بؤرةً للأفكار السوداء والتخيلات السوداء.

صونيا: والكراهية أليست في أقصى درجات النجاسة؟ كيف يخنق نظام الإستبداد روح المحبة في قلب الانسان ليجعل منه حقوداً يستلذ آمم الآخرين وبؤسهم وشقاءهم، يستلذ أن يرى الناس فقراء جهلة فاقدين لأدنى درجات الكرامة الإنسانية، يستلذ أن يكون عسماً على الناس يتجسس على تصرفاتهم ومسلكياتهم ويفرح عندما يوقع بواحد منهم، الإستبداد يجعل الإنسان ابن العتمة لا ابن النور، ابن الكراهية لا ابن المحبة، ابن الروح العدوانية فهو يعتدي على نفسه ويعتدي على الآخرين.

حسام: بعد كل ما سمعت تقولون لي هذا شرق الأنبياء والقديسين والرسالات السماوية، إنه فقط شرق الحكام المستبدين الطغاة الذين عبثوا بكرامات الناس وصادروا حرياتهم وعقولهم منذ آلاف السنوات حتى اليوم، إنه الشرق الذي كان الملك يموت فيه فتدفن ثروته معه وملايين الناس تشتهي ملامسة الدينار، شرقٌ تدفن فيه قناطير الذهب مع جثة الفرعون الحاكم والناس لا تعرف الذهب إلا في الاحلام والمنام، شرقٌ تنحرف فيه الخراف بالمئات في ولائم أفراح أولاد الحكام ثم يرمى أكثرها في المزابل كفضلات في الوقت الذي عاش فيه آلاف الناس وماتوا وهم لا يعرفون طعم اللحوم ويكتفون بنبات الارض، لا تقولوا أن جنة عدن هنا في هذا الشرق، فهنا لا يوجد إلا أسواق النخاسة التي تباع فيها الشعوب بالمزادات العلنية من قبل الدول الكبرى، هنا لا يوجد إلا حميراً تحمل أكياس الذهب والجوهر على ظهورها وعندما

تجوع لا تجد ما تأكله إلا التبين والبرسيم. بعد كل ما سمعت لا تقولوا لي هذا شرق النظافة لأنها تغتسل فيه عدة مرات في اليوم، لأنها تغتسل بنتن تقاليدھا وعاداتھا، بنتن أنھاھا الملوثة والتي تعتبرھا مقدسة، وتنتن قبورها المعفنة والتي تعتبرھا مباركة، إنه شرق القذارة، شرق النجاسة، شرق الغلمان والجواري شرق العبيد .

جاكو: حنانيك يا صديقنا حسام هل نسيت أن الغرب هو غرب الغزو والعدوان والاستعمار منذ خمسمائة سنة وحتى اليوم، منذ أن اكتشف الغربيون أميركا ماذا فعلوا غير قتل الشعوب الأصلية بأقذر الاساليب وإبادة الحضارات وتدميرھا، ماذا ترك الغربيون من حضارة الأنكا والأزتيك ومن آلاف السجلات والوثائق والكتب غير الرماد؟ من استرقّ الناس بأبشع الأساليب غير الغربيين، من غزا الشرق باسم الدين غير الغربيين؟ من أشعل الحروب العالمية التي قتل فيها الملايين وهدمت فيها عشرات المدن باسم العنصرية والمصالح المالية غير الغربيين، وأخيراً ونحن لا زلنا شاهدين على ذلك ، من دمر حضارة ما بين النهرين وحرقت متاحفھا ونهبھا وعذب الناس في أبي غريب وأشعل نار الحروب بين المذاهب في هذا الشرق المسكين غير الغربيين، أليس هذا أيضاً أقصى درجات القذارة؟

سليمان: يمكن تلخيص الطهارة بأربع كلمات، السلام والأمان والكفاية والعدل، ولكن يبقى السؤال كيف يمكن الوصول الى تحقيق مضمون هذه الكلمات الأربعة؟ كيف نحصل على السلام إذا لم نقتل من رؤوس الحكام والشعوب آخر نقطة من ماء العنصرية الملوثة، كيف نحصل على الأمان إذا لم ننجح في نقل الإنسان من اعتبار نفسه كائن فرد لا يهتم إلا بشؤون ذاته الى اعتبار نفسه كائن إجتماعي كوزمبوليتي، سعادتھ جزء من سعادة الآخرين، وارتباطه بالآخرين هو ارتباط عضوي مصيري وليس ارتباط مصالح مشتركة فقط، كيف نحصل على الكفاية إذا لم نعتبر أن حقّ العلم والعمل والطبابة والتطور حقّ بديهي لكل إنسان، وإذا لم نساوي بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات، ونناغم بين النمو السكاني والنمو الإقتصادي، وكيف نكرس العدل إلا بالاعتدال في طلب الملذات والإستهلاك، والتوازن بين السلطات ووضع الإنسان المناسب في المكان المناسب، وإلغاء أي امتياز يعود الى الوراثة أو المعتقدات الدينية أو القوة والجمال وأي هبة جادت بها الطبيعة ولم يكتسبها الإنسان بجهدھ ونشاطه، أي عدالة نبتغيھا إذا بقي هناك أناس يعتقدون أن معتقداتھم على حقّ ومعتقدات الآخرين على باطل وهم دون غيرھم شعب الله المختار وبقية الناس مجرد " غوييم" عبيد وجدوا فقط لخدمتھم، تريدون الوصول الى الطهارة؟ هذه هي الطهارة.

صونيا: أي سلام تريدون والدنيا بركانٌ تغلي بجوفه حمم الأحقاد، وھا هو يتأهب ليقذف بها في كل الاتجاهات ناراً تحرق البشر والحجر، ألا ترون كيف يقوم قومٌ على قومٍ وأمةٌ على أمةٍ

وقارة على قارة وطبقة على طبقة ودين على دين ومذهب على مذهب، فاضت الكراهية فأغرق صديدها كل الشعوب، زحف الحقد فبدأ الهرب من شاهق الى شاهق، أرقى الدول التي تتشدد باحترام حقوق الإنسان والسعي لنشرها في كل مكان أنظروا ماذا تستبطن من الشرور والعدوانية، تخيلوا إنقطاع الكهرباء في نيويورك " كما عندنا " أو لوس أنجلوس لمدة أسبوع، ثم أحصوا الإغتصاب والقتل واقتحام المتاجر والبيوت التي كانت تتباهى بأمنها، كل هذا يدل أنّ النفوس ممثلة حقدًا وحسدًا وجشعًا وعدوانية، وهي تنتظر الفرصة المناسبة لكي تتقيأ قذارتها.

سلوى: هذا يعني أنّ الخوف من العقاب هو الذي أثمر السلام والإستقرار، وليس القناعة العقلية والضميرية بأن الفرد خلية حيّة في جسم المجتمع تسعد لسعادته وتشقى لشقائه، بل الفرد ذئب بالقوة ينتظر الوقت المناسب ليصبح ذئباً بالفعل، وبعد هذا تتحدثون عن النظافة والطهارة!

حسام: عندما تكون نفسية الفرد ذنبية لا تختزن إلا الأماني المظلمة في إغتصاب المال العام والخاص وإغتصاب النساء والأطفال، ولا تعطيها قوى الأمن الفرصة لكي تجسد أمانيتها القدرة حقيقةً على أرض الواقع، عندها يكون البديل هو الإلتناء الى أحزاب ومنظمات تنادي بالعنصرية والتعصب الديني والمذهبي كمخرج لكي تفجر مخزونها العدواني، وهذا برأيي المتواضع هو السبب في تفشي الأحزاب اليمينية واليسارية المتطرفة حتى بأرقى الدول في دخلها القومي وتطورها العلمي والتكنولوجي.

جاكو: أكثر الأحزاب التي تحكم الكون اليوم والتي تعدّ العدة لحكمه هي أحزاب قامت إما على العنصرية العرقية أو الطبقيّة أو الدينية أو المذهبية ونحن في الشرق الأوسط ندفع الثمن باهظاً هذه الأيام.

صونيا: إني أوافق حسام على رأيه أنّ امتلاء قلوب الأفراد بالحقد والحسد والجشع والعدوانية هو الذي أفرز الأحزاب والمنظمات المتطرفة التي تمارس اليوم أعتى شرور الإرهاب، إنّ نفوس الأفراد مهياة بل مستنفرة فقط تحتاج الى عبقرية شيطانية تجمع ما تشظى وتنظم ما تبعثر ليولد ذلك المرعب الذي اسمه الإرهاب، هذه حالنا اليوم الأشكال الخارجية نظيفة والأرواح قدرة منتنة رائحة عدوانيتها تقشعر لها الأبدان وترتجف المفاصل وتنخلع القلوب.

سلوى: هذا يعني أنّ الثورة الصناعية والتكنولوجية والعولمة أيقظت من النجاسة ما كان كامناً ونشرت من العفونة ما كان مستتراً وفجرت من الخوف والرعب ما كان مكبوتاً.

سليمان: لا نظافة ولا طهارة إلا إذا تصالح الإنسان الفرد مع نفسه أولاً ومع مجتمعه ثانياً ومع الإنسانية ثالثاً ومع الله رابعاً، ولكن الأسئلة التي تحتاج الى كثير من البحث والتمحيص للإجابة عليها، كيف نضع حدوداً منطقية لهذه المصطلحات؟ وما هي الآلية التي ستتبع لإنجاز هذه المهمة الشاقة.

حسام: على صعيد تصالح الإنسان الفرد مع نفسه أقول، إذا اشتغلنا على مبدأ تنمية حاسة تذوق الجمال وإدراكه والسعي لتجسيده يمكن الوصول الى نتائج إيجابية، ألم نقل سابقاً أنّ الجمال الظاهري هو توازن الأعضاء وتناغمها داخل وحدة الجسد، والجمال الباطني هو توازن الغرائز والعواطف والأفكار والرؤى داخل وحدة النفس، هنا نسأل هذا السؤال هل الإنسان الجميل بجسده يمكن أن يكون عدوانياً؟ هل يمكن أن يتعدى على جسده بإدمان الكحول والمخدرات وأكل الدهون والحلويات بشراهة، هل يرضى أن يُعرض جسده عبر ممارسة الجنس المنفلت الى التلوث بالجراثيم والفايروسات؟ وهل يمكن للإنسان الجميل بنفسه أن يسمح لغرائزه أن تقود عواطفه وعقله؟

جاكو: ولكن مفهوم عامة الناس اليوم عن الجمال هو مفهوم بعيد عن تصوراتك، إنهم يعتبرون الجمال في القدرة على الإثارة ودغدغة الغرائز وتنشيط الشبق الجنسي وبالتالي جمال يشجع على مزيد من العدوانية.

صونيا: تسويق الإثارة تحت عباءة الجمال، إنه أحد أكبر الصناعات الشريرة التي تشجع على تنمية الروح العدوانية عند الانسان.

سليمان: ما قاله حسام هو روح الحقيقة سكبها في قوالبه الخاصة به، أنا شخصياً أفهم الامور هكذا.. لقد جعل الله الجسد والروح أمانةً في عنق الإنسان فعليه أن يحفظ الأمانة لأنه ابن الله وخليفته والناطق الوحيد باسمه، والإنسان يؤتمن على جسده إذا فهم قوانين الطبيعة وتناغم معها لأن الجسد نتاج طبيعي، ويؤتمن على روحه إذا فهم قوانين العقل وتناغم مع تلك القوانين. وإذا فعل ذلك لا شك سيكون جميلاً بل مثلاً أعلى في علم الجمال، من قال أنّ الطهارة ليست إلا مرادفاً للجمال، ألم نقل سابقاً أنّ نظافة الجسد هي إزالة الفضلات العالقة به من شحم ولحم وفايروسات وجراثيم، ونظافة الروح هي إزالة الفضلات العالقة بها من حقد وحسد وكراهية وجشع ودناءة وجبانة وتلذذ بالتعدي على الآخرين وإستغلالهم وحتى إستعبادهم.

سلوى: عرفنا الآن كيف يتصالح الإنسان مع نفسه وبقي علينا أن نعرف كيف يتصالح مع مجتمعه وربّه.

صونيا: أنا لا أشك أنّ علاقة الفرد بالمجتمع يجب أن تبنى على مبدأ الحقوق والواجبات ولكن المشكلة أنّ كل فرد وكل مجتمع يفهم الحقوق والواجبات من خلال مصالحه وليس من خلال الحقيقة والخير العام.

سليمان: لا أستطيع أن أتصور إنسان الوعي والحرية والمسؤولية إلا في مجتمع الكفاية والعدل، كيف يمكن أن يكون الفرد حراً بإختياراته دون إكراه ولا إجبار ولا ضغوطات في مجتمع يتحكم فيه الإقطاع بإبعاده الثلاثة السياسي والديني والمالي، وينقسم فيه الناس الى جماهير غوغائية ومنتفذين في أبراجهم العاجية ووسطاء ينافقون هنا وهناك، كيف يصون الفرد وعيه في مجتمع يحكمه الفكر الغيبي والخرافي والشعوذات، والمتنفذون فيه يشجعون على ذلك لأنه يخدم مصالحهم في مصادرة عقول الناس وتحويلهم الى مجرد أشباح بلا أرواح.

جاكو: لا شيء يحررنا من الارتهان للغيبيات والشعوذات إلا مجتمع منظم على مبدأ السيادة للعقل والمنطق والخير العام، مجتمع عقلائي مدني قائم على أساس التفاعل الإيجابي الذي يخدم المصالح العليا بين جميع أثنياته وأديانه وطوائفه وثقافته، مجتمع منفتح على جميع الحضارات يسمح لكل رياح الحداثة أن تدخل ساحاته ولكنه لا يسمح لأي ريح أن تقتلعه من جذوره الوطنية والقومية والحضارية.

سلوى: أنا لا أصدّق أنّ هناك مجتمعاً سيادياً إيجابياً وهو مكشوف بأمنه الغذائي والثقافي والسياسي، فالمجتمع المرتهن لباخرة القمح التي قد تصل الى مرافئه والتي لأسباب طارئة قد لا تصل ماذا تقولون عنه، والمجتمع الذي تنهزم في مدارسه وجامعاته لغته القومية أمام هجوم اللغات الأجنبية ماذا تقولون عنه، والمجتمع الذي تتحكم الدول الكبرى والمجاورة في تعيين رؤسائه ومسؤوليه ماذا تقولون عنه.

جاكوب: مما لا شكّ فيه أنه يجب مراعاة قضية الأمن الغذائي والثقافي والسياسي، ولكن في عصر العولمة تداخلت الأمور فإذا كنا نحن مثلاً من الأرباح لنا أن نزرع كل سهلنا وورداً وقرنفل ونصدرها الى الخارج بأسعار مغرية أليس هذا أفضل من أن نزرعها قمحاً وشعيراً وعدساً لنحصل على الأمن الغذائي، وإذا كانت اللغات الأجنبية تنفع متخرجينا في أسواق العمل أكثر من لغتنا القومية أليس من الأفضل تنميتها على حساب اللغة القومية، وإذا كان الرؤساء الذين تختارهم الدول الكبرى والمجاورة أفضل من الرؤساء التي تأتي بهم عصبية القيسي واليمني وضغائن المسلم والمسيحي أليس ذلك أفضل؟ لماذا لا نقيس أحقية الشيء وعدالته ونظافته بمدى منفعة؟

حسام: ولكن المنفعة تذهب الى جيوب الصقور وتبقى الحمام جائعة لا تجد أمامها إلا الرحيل والتشتت، حتى وهي في الشتات لا تجد من يذكرها " إلا إذا حولها الكدح الشرعي الى صقور بالقوة ".

صونيا: لا عدالة بلا وعي، ولا وعي بلا حرية، ولا حرية بلا مسؤولية، ولا مسؤولية بلا فلسفة غائية تجعل من الانسان محور هذا الوجود وغايته وسدرة منتهاه، طالما هناك أناس يتصرفون على أساس أن وجودهم وعدم وجودهم متساويان، طالما أن هناك أناس يتصرفون على أساس أن من يولد تولى رزقه معه، طالما أن هناك أناس يتناسلون ولا يفهمون معنى قداسة العائلة.

سلوى: لقد عرفنا بما فيه الكفاية عن تصالح الإنسان مع مجتمعه فكيف يتصالح مع الإنسانية؟ هل يقفز فوق سياج الوطنية والقومية والمذهب والدين والحضارة، ليصل الى الإنسانية؟

سليمان: العكس هو الصحيح، إذا فهمنا معنى الإنتماء الى الوطن والقومية والحضارة فهماً إيجابياً نكون قد وصلنا الى التصالح مع الإنسانية، أنا أعتز بإنتمائي الوطني وهو يتكامل مع إنتمائي القومي ولا يتناقض معه، وإنتمائي القومي يتكامل مع إنتمائي الحضاري، وإنتمائي الحضاري هو الباب الذي أُلج منه الى إنتمائي الانساني الكوزمبوليتي، تفاعل الأوطان الإيجابي داخل الإطار القومي، وتفاعل القوميات الإيجابي داخل الإطار الحضاري، وتفاعل الحضارات الإيجابي داخل الإطار الإنساني هذا هو السراط المستقيم الذي يوصل الى سدرة المنتهى حيث جنة المأوى.

سلوى: بقي أن نتلمس طريق تصالح المخلوق مع خالقه، هل نسعى الى ذلك بالعقل شأن الفلاسفة، أو بالحدس شأن الشعراء، أو بالولاء شأن الزهاد والمتصوفين، أو بتوفيق من الله فهو الذي يختارنا وليس نحن الذين نختاره.

سليمان: إلهي... أنشأتني أنظر اليك فأراك في قلبي وفي عقلي وفي ضميري وفي كل أين، أرى الوجود ممتلياً بك، فحاشا أن أكون من الذين ينظرون إليك وهم لا يبصرون، أنت الذي تجليت على قلوب محبيك فكان الجمال والبهاء والإبداع، أنت الذي سقيت تلك القلوب من خمرة الأُنس والطمأنينة والسرور، بكؤوس العطف واللفظ والرحمة، فانكشف الغطاء ورفع الحجاب عن الألباب، فتجسد العقل كلمةً، وزلزلت الكلمة زلزالها، وأخرجت الأحرف أثقالها، فهام عشاق الجمال بملامستهم كمال الجمال، فساروا بقدم الروح الى سدرة منتهى أرواحهم فازدادوا هيماً ولا زالوا هائمين.

صونيا: التصالح مع الخالق يكون باحترام قوانين الطبيعة وقوانين العقل التي على أساسها خلق الخالق مخلوقاته.

جاكوب: كيف تقولين ذلك! فكلامك يعني أنه قبل أن يبدأ الخالق في خلق مخلوقاته كان هناك قوانين إسمها قوانين الطبيعة وقوانين إسمها قوانين العقل، وهذا يعني أن تلك القوانين تشارك الله أزليته، أليس هذا هو الشرك بعينه؟

صونيا: قد أكون أخطأت في التعبير ولكن قصدي أنه لا يمكن أن نحب الخالق ونكره مخلوقاته، ولذلك علينا أن نعيد النظر في الكثير من عاداتنا ومسلكياتنا، فالله منزّه عن العيب وهذا يعني أن كل المخلوقات خلقت من أجل غاية ولها منفعة، والوجود لا يكتمل إلا بها. والتعدي عليها أو إبادتها هو تعد على الوجود وخالق الوجود أي الله، من هذه الزاوية أنا أفهم كيف لا يعتدي أهل الهند على الفئران والقرود وسائر الزحافات، ويتناغموا معهم في المعيشة، بل يتقاسموا معهم رغيف الخبز.

سلوى: من يمتليء قلبه بحب الله لا يعود فيه متسع لأي كراهية حتى كراهية الأعداء أو كراهية الموت، أليس من أجل ذلك قال السيد المسيح، أحبوا أعدائكم فأني فضل لكم إذا أحببتم أصدقاءكم فحتى اللصوص يفعلون ذلك.

حسام: كيف نريد أن نتصالح مع الله ونحن متخصصون مع الفن والفلسفة وعلم المنطق؟ فالغناء في ثقافتنا الدينية غير مستحب إن لم نقل حرام، وكذلك الرقص والموسيقى والتصوير والنحت والتمثيل، ومن تمنطق فقد تزندق، نحن لا نتقن إلا شيئاً واحداً وهو السجود لصنم الحرف سجود خوف ورهبة وكذلك السجود للقوامين على الحرف، ناهيك عن التبرك بالقبور والبكاء على أعتابها.

جاكوب: ثقافتنا ثقافة إتباع لا ثقافة إبداع فهل ننسى القول المشهور الذي نزل حفرأ في عقول الناس، كل بدعة ضلال وكل ضلال في نار جهنم.

صونيا: ولكن هناك فلاسفة وحكماء وصوفيين كثر تصالحوا مع ربهم فنطق الله بألسنتهم وسعى بإراداتهم.

حسام: وحدهم عشاق الجمال تصالحوا مع ربهم، فهم دون غيرهم فهموا أن الجمال تناغم وتوازن وجمع ما تنافر، وتوحيد ما تفرق، الجمال بهاء الخير كما قال أفلاطون، والخير بهاء الحق الذي هو الله.

سليمان: لكي نتصالح مع الله علينا ألا نشتغل به عنه، فهو الموجود المنزه، فإذا انشغلنا عنه أضعنا خاصة التنزيه وهتكنا أستار محارم الحق فبتنا وقد شغلنا ظواهر الألفاظ عن حقيقتها، فتتوجه الأنوار عن قلوبنا وتمسي أنفسنا أبواباً للمعاصي وسبلاً للحرمان، فنأول الباطل ونتخذ المآثم شراباً عذباً زلالاً.

جاكو: أنا لم أفهم من كلامك كلمة واحدة، كيف نشتغل به عنه، فلكي نتصوره يجب أن يكون موجوداً، ولكي يكون موجوداً يجب أن يحده زمانٌ ومكان، وإذا حدّه الزمان والمكان كان موجوداً في مكان وخلت منه بقية الأمكنة، وفي زمان وخلت منه بقية الأزمنة، وهذا هو الكفر بعينه، وإذا لم يحيط به الزمان والمكان فهذا يعني أنه خارج هذا الوجود ولا سلطة له على هذا الوجود.

سليمان: ولهذا علينا أن نتصور الله موجوداً يمتليء به كل الوجود، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وما من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم، وعلينا بنفس الوقت أن نتصوره منزهاً لا تحيط به العقول والأفهام ولا الخواطر والأوهام، فنحن نعرفه على قدر منزلتنا فيه، والمنزلة إخلاص وصفاء سريرة وعفة وفضيلة.

حسام: بالحب وحده نتلمس وجود الله، وبالوله والهيام فقط نتلمس تنزيهه.

الحبُّ يخلق في الانسان معجزةً

الله أكبر كم في الحبِّ من عجب

سليمان: يا حبيبي ومولاي... بعزة هواي الذي هوى من ذاتك، وبعزة تضرعي في محراب عشقك، وبهذه الأحاسيس التي انبعثت شوقاً وصبابةً ودخلت في عالم لطافتها، هبني قبساً من نورك الشعشعاني الذي جعلته برداً وسلاماً على من اطمأنوا الى معرفتك اليقينية التي لا تساورها رياح الشكّ وضباب الظنون، ألا يحقّ لعاشق مثلي أن يتيه ويختال ويمشي مرحاً بعد أن تجرد من آدمية صلصاله، فذهبت أشرط العبودية عنه وتحقق بالحق!

الجميع: إذا تصالحنا مع الله ذهبت أشرط العبودية عنا وتحققنا بالحق.

